بدايتها مِسك بمسكٌ التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾. . . وختامها مِسكٌ بمَسك التوبة «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً» وبينهما رائحة المسك في توجيهات تتبنَّى تقوى الله والتوبة عن الطغوى!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾:

= آية فقال أبي: قد رأيتها وإنها لتعادل البقرة وأكثر من سورة البقرة ولقد قرأنا فيها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فرفع منها ما رفع، وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن عباس قال: أمر عمر بن الخطاب منادياً فنادى أن الصلاة جامعة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس لا تجزعُنّ من آية الرجم فإنها آية نزلت في كتاب الله وقرأناها ولكنها ذهبت في قرآن كثير ذهب مع محمد وآية ذلك ان النبي ﷺ قد رجم وأن أبا بكر قد رجم ورجمت بعدهما وأنه سيجيءُ قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم.

أقول: لو كانت آية الرجم من كتاب الله وعمل بها منذ الرسول إلى عمر فكانت - إذاً - معروفة لدى حفاظ القرآن وسواهم فلماذا لم يثبتها عمر، وفيه أخرج أحمد والنسائي عن عبد الرحمن ابن عوف أن عمر بن خطاب خطب الناس فسمعته يقول: ألا وإن أناساً يقولون ما بال الرجم وفي كتاب الله الجلد وقد رجم النبي ﷺ ورجمنا بعده ولولا أن يقول قائلون ويتكلم متكلمون أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت.

أقول: أضحِك به وأغرِب ومن الغريب أنهم ينسبون إلى رسول الله ﷺ تحريف آية الرجم، كما أخرج النسائي وأبو يعلى عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد بن ثابت فقال زيد: ما تقرأ «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ أنبئني آية الرجم قال: لا أستطيع الآن، هذا وقد أخرج ابن الضريس عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن خالته أخبرته قالت لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة»! ثم نرى نقيضه فيما أخرج ابن الضريس عن عمر قال قلت لرسول الله ﷺ: لما نزلت آية الرجم أكتمها يا رسول الله ﷺ قال: لا أستطيع ذلك، وأخرج ابن الضريس عن زيد بن أسلم أن عمر بن خطاب خطب الناس فقال: لا تشكوا في الرجم فإنه حق قد رجم رسول الله ﷺ ورجم أبو بكر ورجمت ولقد هممت أن أكتب في المصحف فسأل أُبي بن كعب عن آية الرجم فقال أبي: ألست أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري وقلت أتستقرئه آية الرجم وهم يتسامرون تسامر الحمر؟» أقول فاقض العجب من هذه الهرطقات المتناقضة وتبرأ منها إلى الله!

يرسم في هذه الثلاث تخلية السلب: ﴿ٱتَّقِ . . . وَلَا تُطِعِ﴾ وتحلية الإيجاب: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ ثم يتبعهما بسياج التوكل على الله في كل سلب وإيجاب، ليرسم حياته الرسالية كلها بكلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾!

وإنها آية فريدة منقطعة النظير، آمرة بتقوى البشير النذير، لأن موقفه من الكافرين والمنافقين خطير خطير، وهذه تقوى سياسية تجنباً عن أن يُدلوه بمواعيدهم العَسِلة، كأن يرفض ذكر آلهتهم حتى يدعوه وربه[١] معاملة التهاتر بعُملة الوعد الكذب، ما لو كان صادقاً لكان صاداً للدعوة الإسلامية لفترة، مما يدل على تسرُّب المصلحية السياسية في هذه الدعوة فتبوء بالفشل والخسار والدمار، فظاهره فيه الرحمة وباطنه من قِبَله العذاب!

فلذلك «يا أيها» . . . لا «يا» فقط أو «أيها» تدليلاً على خطورة المنادى له وتنبيه المنادى.

أترى أن النبي كان متلبساً بطاعة الكافرين والمنافقين حتى يتقيها؟ كلَّا والتقوى هي الابتعاد عن المحظور، وأصلها ما لم يتلبس وهو على أشرافه،

---

(١) في المجمع نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله ﷺ في قتلهم فقال: إني أعطيتهم الأمان وأمر ﷺ فأخرجوا من المدينة ونزلت الآية ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] من أهل مكة (أبو سفيان وأبو الأعور وعكرمة) والمنافقين (ابن أبي وابن سعيد وطعمة).

وفي الدر المنثور ٥: ١٨٠ - أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] أقول: هذا يناسب جوّ مكة وقد مضى، وأما المدينة فلا يناسبها هذا الاقتراح وقد يئسوا من تطميعه بمال أو منال!

وأوامر الله ونواهيه الموجهة إلى شخص النبي ﷺ تنقسم إلى تشريعية لو لولاها لم يعرف النبي إيجاباً أو تحريماً، كالأحكام التعبدية غير الضرورية، وإلى تأكيدية فيما هو ضروري معلوم كـ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[١] و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٢] وإلى سياسية ظاهرها غير باطنها فهي تنبيهية كهذه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾....

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ للنبي التقي في القمة، تنبيهة لاستمرارية التقوى، ولتقوى تقواه كل حين أقوى مما مضى، فلأنه يزداد علماً ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٣] فليزدد على ضوئه وتباعاً له تقوى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٤] وليس لذلك اليقين حدٌّ يقف عليه، فلا وقفة لعبادته وتقواه، ثم للتقوى واجهتان: أن تتقي بنفسك عن الحق وهو الاتقاء بإسناد النقائص كلها إليك عن إسنادها - أياً كان - إليه، فتجعل نفسك وقاية له تعالى.

أو تتقي بالحق عن نفسك وهو الاتقاء بإسناد الكمالات كلها إليه تعالى عن إسنادها إليك فتجعله وقاية لك، وهما كمال التقوى أن تتخلى عن كل ما يختص بالله وتخلِّيه تعالى عن كل ما تختص بك، وكلما وراءهما طغوى بدركاتها، كما هما تقوى بدرجاتها.

وأما ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ فهو متكرر له في الذكر الحكيم، نهياً عن المسايرات السياسية فيما ظاهرها مصلحة، لولا العصمة الإلهية لتفلت النبي ﷺ بالتفاتها ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٥] لا تؤذهم وإنْ يؤذوك، ولا تطعهم وعدَ ألَّا يؤذوك! ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[١] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾[٢] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[٣] ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٤] وعلى الجملة: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥].

كل ذلك نهي عن طاعتهم ولمَّا يقترف، ولكي يبقى مفارقاً غير مقارف، وكل ذلك في التلبيسات السياسية التي تزلُّ فيها الأقدام، والله يعصم رسوله فيها عصمةً كاملة كافلة للدعوة الرسالية المعصومة العاصمة للأمة!

إنه ﷺ قطعاً لم تخلد بخلده لهم طاعة، ولم تحصل في أي من هذه الموارد، فالنهي تأكيد للترك، والتداوم على الترك، ولكي يسمع الكافرون والمنافقون الطامعون طاعته، يسمعوا تحذيره من الإذاعة القرآنية فيتركوا اقتراحاتهم التي تشق عليه وتؤذيه!

«لا تطع...» لـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بك وبهم ﴿حَكِيمًا﴾ بما يصلح لك كرسول، وعليهم كمتربصي الدوائر بالرسالة والرسول، فالله عليم بما يجهلونه وما تجهله، حكيم بما لا تحكمه، وأنت كرسول دائب إلى قمم من العبودية.

والرسالة بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيماً، فمهما أرادوا ليكيدوك ويغروك أن في إجابتهم إخماداً لنائرة الحرب، وتقرباً لهم إلى الإسلام بتلك الاستمالة والتقارب، ولكنه أمرٌ ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾!

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.
(٢) سورة القلم، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ فلأنه ربك في كل صغيرة وكبيرة، ظاهرة وباطنة، ولكي تكون رسول ربك بما رباك فـ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ وقد أحاط علماً بما يعمله الكافرون والمنافقون من شيطنة السياسات، وتهاترات المعاملات، التي تبوء بالخساء للرسول، وبالدمار للرسالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ وكما أحاط خبراً وعلماً بما تعمله أنت ومن معك، فـ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تشملها، تنديداً بأعمالهما وحيطة على أعماله بمن معه.

ولكي تكون على أهبة كاملة كافلة لتقوى مطلقة، وتركٍ لطاعتهم مطلقاً، رغم المناوآت والعرقلات التي لا تملك صدها، بعدما وفيت وكفيت جهودك كلها:

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾: فلا توكّل على سواه إذ لا وكيل في المخاطر والضرورات إلّا الله، فتوكل على الله لا سواه، في أن: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ لا سواه وفي أن: «لا تطع...» إلّا إياه!

أصل السلب: «لا إله» وأصل الإيجاب: «إلّا الله» محوَّل إلى محاولة العبد، ثم المطلق فيهما موكل إلى حول الله، فـ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ ... وَلَا تُطِعِ... وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ... قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[1].

وهلَّا يطع الكافرين - فقط - والمنافقين - إذاً - فله أن يطيع غيرهما من المسلمين والمؤمنين؟! كلّا! فلا طاعة لغير الله، وعل تخصيصهما بالذكر هنا لأنهما أراداها منه دون غيرهما، وأن طاعتهما طاعةٌ كافرة أو منافقة، وطاعة غيرهما طاعة فاسقة، أو أن كل من طلب منه ﷺ طاعته من دون الله أو مع الله فهو بذلك يصبح في صف الكافرين أو المنافقين، ولا طاعة

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

لخصوص الرسول إلّا طاعة الله ولا اتباع له ﷺ إلّا لوحي الله، إذ ليس يتأمر عليه وليٌّ إلّا الله، فمهما صحت طاعة لغير الرسول غيرَ الله، من رسول أو إمام معصوم أمّن ذا من الدعاة إلى الله، فلا تصح للرسول ﷺ إلّا طاعة الله واتباع وحي الله!.

ولو لم تدلنا ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على ألّا يطع غيرهما، فقد يدلنا ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إضافة إلى سائر الآيات في طاعته واتباعه ﷺ.

فهذه الثلاثة رصيدات لهذه الداعية حيث تقيم وتقوَّم دعوته على المنهج الواضح الناصح: تقوى الله وترك طاعة من سوى الله، والتوكل فيهما على الله! مهما كان من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، يسمعانه فيقطعان آمالهم عن طاعته ويسمعه المؤمنون فيتقون!

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾:

هنا أمور ثلاثة ما جعلها الله من تكوينية تُحيل أن يجعلها غير الله، ومن تشريعية تحرِّم عليهم جَعلها، أترى أن بينها في سلبها أو إيجابها صلةً ورباطاً؟ ثم ترى أن لها أم لأولاها رباطاً بما سلفها؟

إن لأولاها رباطاً عريقاً سالفها ولاحقها، فطاعة الله وطاعة الذين يحادون الله تتطلب قلبين اثنين إذ لا تجتمعان في قلب واحد، فالذي يمزج بينهما - ضغث من هذا وضغث من ذاك - لا يطيع إلّا هواه، دون الله وسواه، حيث الطاعة المطلقة التي هي الطاعة لا سواها، تحيل كونها بين اتجاهين متناحرين، إلّا أن يكون للمطيع قلبان اثنان فيصبح كشخصين يطيع ويهوى بأحدهما الله، وبثانيهما مَن سواه.

كما ولم يجعل لرجل من أمّين اثنين، التي ولدته والتي ظاهر منها، لا جعلاً تكوينياً ولا تشريعياً، أن تنزَّل الزوجة المظاهرة منزلة الأم، وإن أمكن في غيرها كالأم الرضاعية، وكذلك الأمر في الأدعياء فهم ليسوا أبناءً ولا بمنزلة الأبناء.

وليس لقلب واحد أن يتجه ويهوى إلى أمّين على سواء، ولا إلى ابنين على سواء، وأحدهما مجازي مجعول بحق أو باطل، اللهم إلّا أن يكون لرجل من قلبين في جوفه!

فالضابطة الرئيسية في هذا البين ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ أن يصبح كشخصين يتجه كلٌّ إلى وجهة، مضادة أو مناقضة للأخرى في حب مطلق وهوى أو بغض مطلق أما ذا؟

فالجمع بين اثنين في قلب واحد مستحيل في متناقضين، أو ناقص في مختلفين، فإنه بكماله مستحيل كتمام الحب لهذا وتمامه لعدوِّه، وأما أن تجتمع في قلب واحد أمور عدة لحالة واحدة واتجاه واحدٍ مع الغض عن حب وبغض وطاعة وعصيان، وكل ما يستحيل جمعه في تصديق أم حب وبغض، فإنه من مقام جمع الجمع، يختص بالمقربين كقلب محمد وقلوب المحمديين المعصومين، فلهم الحيطة العلمية بما يتلقون من أعمال، هم من الشهداء فيها إلقاءً يوم الله، والله تعالى فوقهم فـ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1] لا يشغله شأن عن شأن، دون من سواه ومَن سواهم.

ولقد ورد في شأن نزول آية القلبين منازل عدة ومن ذلك قلب المصلي: «فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته»[2] فإنها حقيقة التعلق بالله فلا

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٣٤ ح ٥ في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل له: . . قال الله عزوجل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ . . .﴾.

تجمعها تعلق بغير الله فـ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ولقد كان قلب الرسول ﷺ وذويه متعلقاً متدلياً بالله، ومهما خطر خطره في الصلاة وغيرها تدليلاً على أمرٍ ما فهو أيضاً من الله وإن أخطأ في أمره خاطئون[١].

ومهما كان من شؤون نزولها تكذيب رجل ادعى أن له قلبين[٢] فليست لتكذب من جعل الله له مقام جمع الجمع أن يحيط علماً بأمرين أمّا زاد، ولا يجمع صاحب هذا المقام بين متناقضين، أم حبين لمتباغضين، كمن سواه من العالمين وكما الله رب العالمين - وليس له قلب - فليس ليجمع حبَّ المؤمن إلى حب الكافر أم بغضهما وهو لا يشغله شأن عن شأن!.

ولأن الواجب من حب الله وطاعته هو توحيده فيهما دونما ندٍ ولا شريك، فالجمع بين هكذا حب وطاعة، وحب الغير وطاعته لا يمكن في قلب واحد، إلّا ضغث من هذا وضغث من ذاك وهو من حب الهوى

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٠ - أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطره فقال المنافقون الذين يصلون معه إلا ترى ان له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم فأنزل الله ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ...﴾.
وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال صلى رسول الله ﷺ صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا إن له قلبين الم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة إن له قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ [الأحزاب: ١] ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ...﴾.
أقول: ظاهر قولهم «قلباً معكم» أنه لم يكن سهواً وإنما قرأ آية تندد بالمنافقين وأخرى تبشر المؤمنين فظنوا ظنهم وخيل إلى ابن عباس أنه سهى ولم يكن إلا سهواً منه لا منه ﷺ!

(٢) الدر المنثور ٥: ١٨٠ عن مجاهد قال إن رجلاً من بني فهر قال: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فنزلت وفي المجمع نزلت في أبي معمر حميد بن معمر بن جبيب الفهدي وكان لبيباً حافظاً لما يسمع وكان يقول إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد وكانت قريش تسميه ذا القلبين فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم أبو معمر تلقاه أبو سفيان بن حرب وهو آخذ بيده أحدى نعليه فقال له يا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا انهما في رجلي فعرفوا يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد لما نسي نعله في يده.

وطاعتها، اللهم إلّا في قلبين، هذا يحبه تماماً وهذا يحب غيره، فممكن الجمع بين حبين في قلب واحد غير مطلوب، ومستحيله يمكن في قلبين و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾!

فـ«لن يحبنا من يحب مبغضنا إن ذلك لا يجتمع في قلب واحد»[١] إن شرعة الحب والطاعة الالتقاطية شرعة منافقة لا تنبو ولا تنبئ عن إيمان مهما كان إيماناً بالحق أو بالباطل، فإنه قلب واحد، فلا بدَّ له من تعلق واحد ومنهج واحد، تصوراً كلياً للحياة كلها، وإلّا تمزق ونافق، فإما اتباع الهدى، أو الهوى حيث الخلط بينهما اتباع للهوى إذ لا تعتبر هداه هدىً ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٢]!

وكما لا ينقسم شخص إلى أشخاص، كذلك لا ينقسم قلب إلى قلوب، يستمد آدابه في كل حقل عما يهواه من مَعين وعقل بينها تناحر وتشاجر، فأخلاقه وآدابه من معين، وشرائعه من ثان ولاجتماعياته من ثالث، ولاقتصادياته من رابع، وسياساته من خامس، وثقافاته من سادس، ولعقائده من سابع، فيصبح كالجحيم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٣] ممزَّقاً مشلاة بين أرباب متشاركين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء ولا إلى هؤلآء، وإنه لشرٌّ مكاناً ممن يأخذ كلَّ جنباته من واحدٍ كافر!.

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٤ ح ٦ في أمالي الطوسي بإسناده إلى صالح بن ميثم التمار قال وجدت في كتاب ميثم يقول: تمسينا ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال لنا: إن عبداً لن يقصر في حبنا لخير جعله في قلبه ولن يحبنا من يحب مبغضنا إن ذلك لا يجتمع في قلب واحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يحب بهذا قوماً ويحب بالآخر عدوهم والذي يحبنا فهو يخلص حبنا كما يخلص الذهب لا غش فيه والقمي في رواية ابن الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان... فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه فإن شارك في حبنا عدونا فليس منا ولسنا منه والله عدوهم وجبرائيل وميكائيل والله عدو للكافرين.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

إن كلَّ إنسان هو شخص واحد له قلب واحد لا يملك أن يتقسم في شخصيته وحالاته، يقول: أنا في كل حقل غيري في حقل آخر، فأنا بصفتي مسلماً أصلِّي وأحج و.. وبصفتي سياسياً أعمل وفق مصلحيات السياسة، وبصفتي تاجراً أعمل كرجل اقتصاد أمّا ذا من صفات في مختلف الحقول!

فالإنسان المسلم يعيش مسلماً في هذه كلها، حيث الإسلام يضم وينظم هذه كلها، فيعيش في المحراب كما في الحرب مسلماً، وفي السوق كما في المجلس النيابي مسلماً، يعيش في كل الحقول مسلماً مستسلماً لشرعة الله المتكفلة لكافة حاجيات الحياة وجنباتها.

فإذ يقول الله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾[١] ليس ينهى عن المستحيل، إذ لا يعبد في الحق إلهين إلّا من له قلبان، وإنما يعني أن في اتخاذ إلهين اتخاذاً لإله الهوى ورفضاً لإله الهدى، ومن المستحيل طاعة مطلقة لسيدين متناحرين، اللهم إلّا طاعة لله كأصل وطاعة للرسول كرسول يوجه إلى الله وكما في طاعة الشيطان، فطاعة كلٍّ مستقلاً بجنب الآخر تتطلب قلبين اثنين، إلا أن يكونا في خط واحد أو سبيل واحد.

﴿... وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾... [٢] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾... [٣] [٤].

فالزوجة لن تصبح أمّاً، لا واقعاً فهي التي ولدته، ولا شرعاً فهي التي

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٣.
(٤) راجع الفرقان ج ٢٨: تجد تفاصيل الظهار بأحكامه.